٤ - رحلة إلى ديار الروم

للسيد مصطفى البكرى الصديقى

للأستاذ سامح الخالدى

الشيخ يستكرى محملا فى المركب، وشروعه فى السفر الى مصر بحرا:

« وبت ليلة الجمعة فى (قاسم باشا) لدى صديقنا الحاج محمد اليالقجى، لدعوة سابقة لأجل حضور زواج ابنته، ثم بت ليلة السبت لديه أيضا لخلوضى فى مودته، واستكرينا محلا فى المركب

مما يكون بين السيد والعبد، فتركها إنسانة مجردة من كل شئ إلا من إنسانيتها ... ثم صور أمى العظيم المهزوم حين تسمع كليوباترا دبيب حارس الأعداء فتقول إنه : (معربد الخطو من نشوة النصر لا تسع الأرض رجليه من كبر)

حتى إذا حادثها الحارس صامته فى غير كبر الملك، ثم تلتفت إلى وصيفتيها قائلة :

ياشرميون تعلمى الدنيا ويا هيلانة اختبرى الزمان القاسى
إن التى حرست بأبطال الوغى باتت تصانع سفلة الحراس

حتى إذا ما جاء حابى صالحته مصالحة الإنسان للانسان، لا مصالحة الملك لفرد من الرعية، تقول له :

وفيت لى حابى ولم تكن تنى

ثم تتلطف مع خدمها فتقول للوصيفتين:

يا خادمى، بل ابنتى، تلطفا فى البحث حتى تأتيا بإياس

وتقول :

ياربيع صحبى بعد طول سرورهم قعدوا إلى أحزانهم يبكون

وتقول:

أنشو .. يعز على أمك ساهم يبدو عليك الهم والتفكير

البقية فى العدد القادم

السويس صبحى كامل عزمى

المسافر لديه، وكانت هاتان الليلتان باجتماعنا بالوالد السيد محمد عقود اللبنين، وأخبر فى الليلة الأولى أن بعض الناس دخل فى بغاز الأندلس لدائن لاتحصى، وعاين فيها غرائب لا تستقصى، وحدث بما لم يسمع، وفى المكتب لم يودع، وأن رسالة المراثى، وشرح الصلوات البشيشة المسمى بالروضات العريشة نقلت منها الطائفة الحنابلية نسخا كثيرة، وكذلك الابتهالية التى مطلعها (يارب بالذات العلية)

« وفى الليلة الثانية كانت المذاكرة فى الكنز المطلسم والاسم الأعظم، وكنت أسمعته الكتابة التى كتبتها فى الجزء الثانى، من (شرح الورد السحرى) الربانى على الاسم الكريم فقال لم يبق فى هذه الأسطر القليلة، مايحتاج لذكره إلا ذكرته بعبارة قصيرة غير طويلة؛ وأسمعته فى ذلك المجلس النبوية المسماة (بجريدة المآرب، وخريدة كل شارب) فقال لم أر فيها رأيت صلوات أجمع منها فإنك ذكرت فيها الآل والأصحاب، والخلفا الأنجاب، والمجتهدين الأقطاب، والختم وأعوانه الأنساب

وبت عنده قبل هذه الجمعة ليلتين، طيبتين، وحدث فيهما من أخبار الخليفتين، المهد والمهدى الأنورين والأفخرين. وفى ليلة الاثنين دعانا الحاج مصطفى بن كشيش للعشا عنده صحبة الوالد، ثم ودعنا الداعى بعد المبايعة »

« وسرنا معه (أى الداعى الحاج مصطفى بن كشيش) وبعض المحبين إلى البحر وبتنا فى المركب بعد الوداع بايلة متسعة، وجاءنا فى الصباح الأخ الملتاح الشيخ ذرزق، والحاج مصطفى المشوق، والأخ الشيخ عبد الوهاب التيمى الخليلى، وغيرهم من أحباب، وجاءنى تابع ابن العم المنلا محمد بالمقامة الشامية والمقربية السامية، وطلب الاندراج فى سلك أهل المعراج، فأجبته لطلبته، وأسعفته برغبته »

الشروع فى السفرة البحرية — صعود الاستانة الى الاوسكندرية:

« وسرنا قبيل الظهر من (بشك طاش) إلى (قوم لى)

والعقل من الفراق طاش، وبتنا في أكنافه وقد حفنا الله بألطافه، ووجهنا دفة الانكسار إلى ناحية (بغاز حصار) وأقمنا الثلاثاء والأربعاء، وفي الإقامة نرجو السلامة لما الفؤاد وما، ورحلنا عند يوم الخميس متوجهين إلى مسامتة جزيرة (سانز) ولم نقف عندها حتى أتينا (أستن كوى) وقاربنا حدها وأقمنا لدى (قره باغ)(١) ثلاثة أيام، وسرنا في اليوم الرابع من خلف (رودس) بسلام، ودخلنا الإباحة ونحن في بسط وراحة، وداركنا المولى بالعناية ومن بفضله بالرعاية، فطوى شقة المشقة الطويلة وجاد بإمداد مآثر جميلة. وكان صديقنا الأمجد السعيد الشيخ خليل أفندي أبو سعيد، مفتي الديار المقدسة حالا، أصلح الله منا ومنه مآلا وحالا، ممن نزل في المركب المذكور، طالبا المنزل المعمور، وصحبته الشاب النجيب الحميم السيد إبراهيم نجل المرحوم الشيخ موسى الفتياني (٢) منح التداني »

« وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رجب وصلنا الإسكندرية المحروسة ذات الوهب، ولما وصلناها وحللنا فناها جاءنا أرباب المكس (الجمرك) والنكس، الذين قرب زوالهم دون لبث ومكث، لأنهم أهل حل وعقد ونكث، وفتشوا الأثواب ورموا البعض على التراب، فتثير الفؤاد من فعل هؤلاء الأوغاد معنا ومع جملة العباد، ورجونا المولى الجواد بدفع هذه الأنكاد، عن أمة الهدى والرشاد، وتقريب زمن الإسعاد، بظهور نور محمد البلاد والأغوار والأنجاد، بجاه سيدنا محمد سند الأفراد وآله وصحبه الأجواد »

وصف الرحالة الأندلسي ابن جبير (لجمرك الاسكندرية) قبل الشيخ البكري بخمسمائة وسبعين سنة !

لعل من الطريف أن نأتي هنا على ذكر ما قاله ابن جبير الرحالة الأندلسي، عن جمرك الإسكندرية، فنرى أن الحال لم تتغير كثيرا في معاملة الوافدين على ثغر الإسكندرية، مع اختلاف العهدين :

قال ابن جبير في رحلته طبعة ١٣٢٦ . ص — ٧

« شهر ذي الحجة من السنة المذكورة (٥٧٨ هـ ١١٨٢ م) أوله يوم الأحد ثاني يوم نزولنا بالإسكندرية، فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جاب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو لم يحل، وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا، واستنزل أحمد بن حسان منا، ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب، فطيف به مرقبا على السلطان أولا ثم على القاضي ثم على أهل الديوان، ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل، يستفهم ثم يقيد قوله، ثم خلي سبيله، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم. وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ويحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان فاستدعوا واحدا واحدا وأحضر ما لكل واحد من الأسباب، والديوان قد غص بالزحام، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل، واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك، هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا ؟ وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك، وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين، ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك، وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستردوا الزكاة على أجمل الوجوه، وما لقينا ببلاد هذا الرجل، ما يلم به قبيح لبعض القدر سوى هذه الأحدوثة التي هي من نتائج عمال الدواوين » . انتهى ابن جبير

(١) ومعناها الكرم الأسود (٢) عائلة مقدسية معروفة

الشيخ البكرى يزور الإسكندرية

ولنرجع الآن إلى الشيخ البكرى فإنه بعد أن قاسى على أيدى أرباب المكس فى الإسكندرية ماقاسى يقول :

« واجتمعنا بالصالح الفالح الذى على الفضائل حاوى، الشيخ مصطفى الشمراوى ، خطيب سيدى عبد الله المغاورى فأنزلنا داراً قريبة من داره ، فقر بها قرارى، وكان رفيقنا السيد إبراهيم الفتيانى هو المعرف والدليل المنزل الثانى »

« وفى يوم الثلاثاء ضحوة النهار توجهت إلى زيارة رجالها الأخيار ، فأول من زرته منهم رضى الله تعالى عنهم، جناب سيدى عبد الله المغاورى ، ثم زرت الموازينى ونزلت لدى سيدى محمد شرف الدين الأبوصيرى وصليت لديه ركعتين، وزرت بعده جناب سيدى الإمام أبا العباس أحمد بن عمر الأنصارى ، خليفة الأستاذ الملاذ الولى ، سيدى أبى الحسن على الشاذلى، وزرت ضريحا لصيق ضريحه الطيب المهاب، يقال إن فيه من له إليه انتساب، ثم توجهت على الأقدام لزيارة سيدى ياقوت العرشى ، ثم زرت سيدى مكين الدين الأسمر الأزهر ، الأنور الأبدر الأقمر ، وغيرهم من سادات أعيان

« وفى ضحوة يوم الأربعاء توجهت لزيارة رجال العتيقة فرأيت آثار سورها مهدمة ، كادت أن تكون منعدمة، ونرجو لها النهار وتشعشع الأنوار فى تلك الديار ، فإن آية ليل محاسنها محيت بها والدمار ، حتى كأنها لم تكن فى سالف الأعصار ، وذهبنا إلى جامع العطارين ، وزرنا المصحف العثمانى، وزرنا الشيخ عبد الرزاق الوفائى ، والشيخ على البدوى والشيخ مفرح وأبو غزالة ، والشيخ جابر والشيخ يعقوب والشيخ صفوان والشيخ العجمى ، والصوفى والفتيانى ؛ وجامع العطارين الثانى ، وغيرهم من أرباب تدانى وأصحاب تهانى »

فى مدينة رشيد :

« وفى يوم الخميس توجهنا صحبة أصحابنا من كل وتيس نحو (رشيد) التى سا كنها رشيد ، وصلينا الظهر لدى الجبانة، ووزرنا الشاطبى رفيع المكانة ، وقطعنا المدية ليلا بعد الثانية والثلث ، وسلمنا على تلك المعاهد وبتنا مع مقتبنا السابق، الذى للمحامد يسابق ؛ فى الوكالة . وبعد صلاة الصبح توجهنا نحو (رشيد) مستمدين من أهلها السادة أهل المكانة والجلالة ، فى (وكالة الباشا) فى الطبقة العالية مع رفاقنا أهل المراتب الغالية ، وحصل بعض مطر ، منع من زيارة ساداتها أرباب المقام الأعظم ، ثم إنا فى ظهر يوم الاثنين المبارك توجهنا صحبتهم فى معاش فى المسير نتشارك ، ونزلنا إلى زيارة الشيخ محمد أبى العباس البانى مرتبة التدانى على أساس ، وصليت لديه الظهر جامعاً للعصر مقلداً للامام ابن أدريس رفيع القدر منيع النصر ، ثم أهديت بقية رجالها الفواتح كالحلاوى وأبو الريش والعرابى وسكان كوم الأفراح. ولما سامتنا الشيخ أبا منصور قرأنا له الفاتحة ، وما زلنا إلى الساعة الرابعة من الليل بالبان نسير ، إلى أن وصلنا بمعونة الكبير إلى مساواة (محلة الأمير) ولم ننم إلا اليسير ، خوفا من طروق سراق ، لهم باع فيه الغير فاق ، وأخبرنا أنهم ربما هجموا على المعاش جماعة، لكل شر وضر جماعة ، فتعوذنا بالله من شرورهم ، والتجأنا إليه فى رد كيدهم فى نحورهم ، ووجدنا فى الصباح أقاح برد حادق، يرد الغرزان من الظمأ إلى مرتبة البوادق، وكنت وضعت فى البحر المالح وردا يناسب استعماله فيه والمحل صالح ، ووسمته (بالجوهرة الثمينة.. فيا بقوله راكب السفينة)

« ومررنا ضحوة النهار على سيدى محمد الحلابى ودفينه والشيخ يوسف المغربى ، وسيدى على الخروجى ، وسيدى عبد الوهاب أبى مخلوف والشيخ ماس والبهنسى ، فقرأنا لكل منهم الفاتحة وهاج عند الظهر ريح فى وجهنا شديد ، فربطنا لما لم نستطع المشى لذى ملقة نسميها للقر مفيد ، وعند الغروب سرنا لما سكن ذاك الهوا المهبوب ، وما زالوا يجرون البان ، إلى أن عمود نصف الليل بان، وربطنا عند صليبة، ورجال لنا بالبر عجيبة ، وبعد بزوغ الشمس ، وكان الهم أبعد منه أمس ، قرأنا الفاتحة لفرد هذه النواحى ، القطب الذى الأمداد بناحى، سيدى إبراهيم الدسوقى ، ورجينا منه الشفاعة بحل قيودى ووثوقى ونشر فلوعى ، ووقد شموعى ، وما زلنا بالقلوع نسير، والحق يهون كل عسير ، إلى أن

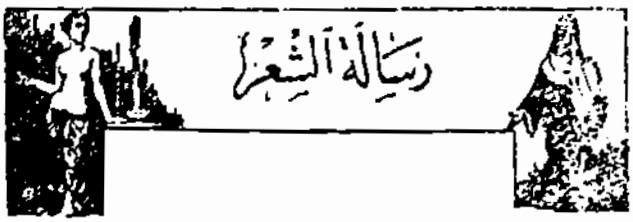

صنعه ذكريات باريس :

الخطو الناعم . .

« حسناء إسبانية التقى بها الشاعر في باريس فكانت وحي هذا اللحن »

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

حينما تخطرين ينداح ظل عبقري الرؤى ويشرق فجر
وإذا أنت والطريق ابتهال قدمي وخطوك الحلو شعر

وصلنا بلدة الشيخ حسن الولي، الحسن ، فهاج ريح، وماج البحر الفسيح، ولم يمكنا الذهاب لترا كم السحاب، وطبق الجو بزائد النو ، وسحت الأمطار مصحوبة بألطاف الستار، ولما أذن مؤذن الصباح يحيل محيل الفلاح ، سرنا إلى أن سامتنا (دسوق) ذات اللمع والبروق ، والطلوع والشروق ، ثم لما مررنا على (مرفض) التي يحق لها أن ترقص طرباً بحلول أبي الجد فيها قدس الله سره ، فقرأنا له الفاتحة ، وعندما جئنا محلة أبي علي زرنا على البعد كل من حل بها من ولي ، وهي على ما قيل ثلث الطريق ، فقلنا عسى ان يسعف الولي بالريح المريح من التمويق ، وقرأنا بالخصوص الفاتحة لابن الشرفي ، وما زلنا نسير بمونة السميع البصير، وكلما جزنا على قبة علم كبير ، قرأنا له الفاتحة ، وجونا كامل البشير، فقلت :

ألا يا ظاهرين بقطر مصر أغيثوني وزمجوا غيم حصري

« ثم إنا ربطنا لدى الشط ، ووارد الأكدار شط ، ومررنا غب الغروب ، ليلا مع معاشات كثيرة لها للسير هبوب ، إلى أن وصلنا قرية «شابور» وبتنا بها في سرور ، ورأينا فيها هلال شعبان المبارك

الكلام بقية

سامح الخالدي

تتندى الظلال أنى تمرين ويخضل في الربى الفيح زهر
وإذا بالطريق يمتد والنو ر على جانبيه عرس وبشر

* * *

خطوك الحلو ياعروس قصيدي هيئات الفراش فوق الورود
أو خفوق النسيم في الأفق المخضل بالنور في الربيع الوليد
أو رفيف الجناح رف على الروض يحيي بزوغ فجر جديد
حيثما تخطرين ينطلق اللحن رخيم الإيقاع حلو النشيد

* * *

خطوك الناعم الرشيق انثيال الطيب من برعم تفتق عطرا
حيثما سرت فالدروب ارتعاشات غناء يموج في الأفق سحرا
خطوات كأنها خطرات الحلم إن راود النواظر فجرا
يرقص الصخر تحتها ويذوب الصمت فيها ، وتنطوي الأرض طرا

* *

لا حدود ، ولا دقائق إن سرت وليس الوجود إلا صدانا
عدم مطلق متى لفظتنا الحب نسغنا من الحياة الزمانا
ما الوجود الجميل لولا هوانا غير نار تنفست عن أسانا
أنذوق الهوى ونبقى ظماء ونعب الهوى ونحشى فنانا

* * *

أتعدين بالتوافي لقاء من حياة تعد بالساعات
اتركي للمشيب تلك الضلالات ولا تحسبي حسابا لآت
أبدع العقل ما ترين لينجو من لهيب الفراغ والأوقات
ملأ الحب كوننا فنسينا كل شيء سوى جمال الحياة

* * *

نحن في فجر عمرنا كنسيم الفجر غضا وكالسنا إشراقا
كلحون الربيع فيها الطير وكالعطر في الفضاء انطلاقا
فتعالي نبث في الأفق الساجي أغاريد حبنا أشواقا
حسبنا في الوجود أنا عشقنا وأخذنا من الهوى ميثاقا

* * *

بغداد

عبد القادر رشيد الناصري